

رحلة صيف الى طهران

النظيفة ، فأعجب لمدينة كل ما فيها نظيف إلا فنادقها . وبعد جولة قصيرة ، والحر يلهب الوجوه - فكأنه تجمع في عبادان لاستقبالنا - عرجنا على مقهى هو أجمل مقهى لافي عبادان بل في جميع ما رأيت من مدن إيران ؛ دخلناه فأنعشنا ما فيه من نسائم ليلية وأخذ بلبنا ما شاهدنا من تماثيل نخمة وزخارف منمقة ومقاعد وثيرة ، لقد كان هذا المنزه خاتمة المطاف في عبادان .

ولا أحدثك عن (المحمرة) جارة عبادان فكل ما فيها يزور عنه النظر فن أناس فتكت بسجنهم (الملايا) فأحالت وجوههم إلى صفرة كدرة ، إلى أسواق مظلمة لها مداخل وليس لها منافذ - ومع ذلك تشرف المحمرة على (كارون) الجميل (اغترف بيديك الماء ، إنه أعذب مياه الدنيا ، ثلج مذاب وشهد مصني !) هذا ما قاله لي أحد الأهلالي ونحن نعبض ضفتي (كارون) . وتحركت السيارات المكتظة بالركاب إلى الأهواز على طريق وعر ومطبات لا تحصى كانت عاقبتها أن انكسرت السيارة في منتصف الطريق فوقفت بمن فيها من أطفال ونسوة تحت لبيب الشمس ثم أكلنا بعدها الرحلة بسيارة شحن - وشيء خير من لا شيء - استرخنا في أثنائها بأحد المقاهي التي تكثر في طرق إيران وتمر بها دوريات منظمة لحفظ الأمن . . . ووصلنا الأهواز فأذن تنامتعاب الطريق ، فقد كانت مدينة جميلة وكل ما احتوته ينبيء عن نظام هندسي بديع ، وهذا جسر (الأهواز) مفخرة لها ، سلسلة فولاذية متشابكة فوق نهر عريض ، منظر جميل ولا شك . وتمتاز هذه المدينة فوق ذلك بطابعها العربي وأكثر سكانها من العرب فالي جانب اللغة الإيرانية تسمع لغتك العربية فينشرح صدرك ويزول بعض ما بك من ألم الاغتراب .

وفي صباح اليوم التالي بكرنا إلى المحطة فاذا هي تزخر بطواير من الناس ينتظرون صرف تذكرة السفر ومددت يدي إلى جيبي أتحمس تذكرتي فحمدت الله لأنني قطعتها مساء أمس وإلا كنت ضائعاً في هذه الصفوف الطويلة . وقفت وصاحبي نستعرض الناس هذا فلاح من « رشت » ، بملابسه الزرقاء وهذا آخر من « تشكسیر » ب « طاقيته » الصوفية وهذا الشاب الأنيق لا شك أنه من « طهران » .

لقد كانت أمتع رحلة بحرية قمت بها . تلك هي رحلتي في الصيف الماضي من الكويت إلى عبادان في طريق إلى طهران .

وإني لأزال أذكر - وقد مضت عدة شهور - ما أحاط ساعة السفر من جمال وجلال ، كان الوقت مساء وشمس الأصيل تداعب بأشعتها الذهبية أمواج الخليج الهادئة ، ومحرك السفينة الصغيرة يرسل نغماً خافتاً هو أنسب ما يكون لهذا السكون الشامل . وابتعدت السفينة بسهولة عن فرضة الكويت ، ورفاق السفر يتطلعون إلى الشاطئ وقد وقف بعض الصحاب ، وتبدلت عبارات التوديع - بأمان الله ، بأمان الله - وراحت السفينة تنساب بين الأمواه الصافية . والتفت إلى شاطئ الوطن الحبيب وقد اكتست رماله بلون الأصيل واحتضنت - جون الكويت - فراحت أمواجه تتراكم إلى الشاطئ . مرحلة ، باعثة في نفوس « الركب » فرحاً ونشاطاً مزوجين بحلو الحديث وبارع الفكاهة . وعادت إلى الخاطر ذكريات حفلت بها هذه الشواطئ المباركة ، ذكريات سطرها التاريخ بإعجاب وتقدير ، عن هذه الأراضي الطاهرة التي شهدت خيل (ابن الوليد) تسابق الريح في الأصباح المشرقة وعلى صهواتها خالد الأشداء في طريقهم للفتوحات الإسلامية . . . وكنت مستسلماً لهذه الذكريات العاطرة وهي تمر بخاطري ، منصرفاً عما في السفينة من خير وشر حتى أظلم المساء ولم يطل السهر فقد نام الرفاق على هزات (المحرك) المنتظمة ، حتى لاح الفجر ففتحنأ أعيننا على مناظر شط العرب الساحرة وتوضأ الركب بأجمعه لصلاة الفجر من ماء عذب فرات بعد أن كان وضوء العشاء ملحاً أجاجاً وقد كانت نادرة الوضوء من موضوع حديث للجميع إذ أننا نمنا على (ماء) وأصبحنا على (ماء) آخر . وأخذنا نمشي بمنة إذ أننا نقصد إيران ، والشاطئ المقابل تابع للعراق ، والشط زاهر بمختلف السفن من بخارية إلى شراعية ، وغابات النخيل تظلل الضفتين ، وهذا (جمرک) عبادان وهنا نزل . وما عبادان إلا قرية نهضت بها مصانع (تكرير النفط) فجعلت منها مدينة حديثة البناء ناشطة الحركة ، فنزلنا في أحد فنادقها فاذا به فندق إسما ، فعلى كثرة الوافدين إلى عبادان تفتقر إلى كثير من الفنادق

واقتربت منه ، سلام عليكم آغا ، فأجاني بلهجة عربية فرحت لها وأخذت أسأله فيما يهني معرفته وما يعينني على سفرى ، ما هى أهم محطات الطريق ؟ كم هى المسافة ؟ هل تتوفر الاطعمة فى المحطات ؟ ! ، وبعد قليل ضاع صديق الأنيق فى الازدحام فرجعت إلى صاحبي فاذا هما قد سبقاني وأعدا لي مكانا مريحا معهما فى إحدى العربات ؛ وصفر القطار ، يا أهل طهران ؛ هلسوا إلى طهران ، وصرت العجلات تسمير القطار .. إذ راح ينهب الأرض ماراً بكثير من مضارب بدو الأهواز .. حتى ابتلعت الصحراء لتسلبه إلى الجبال ، وسار ما يقرب من سبع ساعات قبل أن يرتقى أول جبل من سلسلة الجبال الشاخنة ، وعندما بدأ القطار يتسلق هذه الشواهد ويخترق الأنفاق الكثيرة — كنت وصاحبي نتأمل ونعجب ونخرج رؤوسنا من نوافذ القطار لنطل على الوديان العظيمة وما فيها من أنهار متدفقة تثبت على شاطئها أصناف شتى من أشجار الجوز والبندق واللوز — أهذه إيران وهذه جبالها ؟ ! حقا أنها رائعة هذا ما نتحدث به ونحن نطوى الجبال ونجتاز الجسور المعلقة على الوديان ونخترق الأنفاق وقد اخترقنا ما يزيد على المائة منها ،

وقفنا فى كثير من المصايف على جبال كلكت قمها بتيجان من الثلوج وقرى وادعة نامت على سفوح جبال كستها الأشجار خضرة دائمة ، وفى محطة درود ، سحرنا جمال المصيف فهمنا بالمبيت ولكن رغبتنا فى رؤية طهران حالت أو قل — أجلت — نزولنا فيها : وجاء ثلمان صغار ومع كل منهم سلال صغيرة من المشمش العجمى المشهور بأثمان زهيدة .. وسكتنا عن الكلام فقد امتلأت أفواهنا بهذا المشمش اللذيذ ولنؤجل الحديث إلى أن ننتهى من درود ومشمش درود ، أما الألبان والبيض وهذا الخبز الذى يبلغ طوله نصف متر أو يزيد فما يصبو إليه الجياع ، وقد كنا جياعا حقا إذ أننا أكلنا ما معنا من زاد وبقينا نترقب الفرج إلى أن من الله علينا بدروود فى أعالي الصرود

ويطول الحديث لو حدثتكم عن باقى المحطات ولكنى أحدثكم عن « عراق العجم » أو « اراك » كما يسمونها فهى سهل بين جبل مخضب تكثر فيه الماشية ويبدو فيه نشاط المزارع ،

ووقف القطار كثيراً فى « قم » لأن جموعاً من الزوار

تنزل لتزور قبر السيدة معصومة ، ثم سار إلى طهران . وفى محطة طهران الفخمة وقف قطارنا للمرة الأخيرة وضاع الركاب فى المحطة الواسعة حتى رأينا منفذاً إلى الطريق العام فهرعنا إليه يتبعنا « الخال » أين العربات لا شئ منها أين السيارات ؟ لا سيارات .. ما هى إلا سيارات كبيرة تحملك ولكنها لا تقبل متاعك .. وقفنا طويلاً إلى أن هيا الله لنا « عربة » ركبناها إلى « نزلنا » ولفت أنظارنا فى الطريق سجاجيد تزين الجدران وزينات أقيمت على المحلات والبيوت سألنا « الحوذى » عنها فأجاب « إن هذا اليوم هو ذكرى الإمام الحسن العسكرى ، وهو يوم عطلة مع ما يليه ذكرى لميلاده .

ألقينا الأمتعة بالفندق وحيانا صاحبه بـ « تكشيرة » يقول رفيق أنى ابتسامه ترحيب ففارقناه إلى جلبة الشارع وضوضاء ساحة الطوب خانة ، وهى أهم ساحات طهران ففيها بناية البلدية والتلغراف وأهم المصارف وكلها ضخمة البناء وهذا مركز « شهربانى » أى الشرطة تطل على منتصف الساحة حيث أقيمت التماثيل الكبيرة للملوك الفرس القدماء يحيط بهم أحواض من المياه المزينة بالنافورات وعلى جوانبها حدائق مختلفة من الأزهار والرياحين .

وفى الأيام التالية تجولنا كثيراً بين أحياء طهران وفى مختلف أسواقها حتى « البازار » فقد أُرشدنا إليه محب للخير و « البازار » سوق تعرف أولها ولكنك تته قبل أن تصل آخرها أما ما يباع فى هذه السوق فهذا ما لا يستطاع تحديده كل ما تجده ملقى على الأرض وعلى المقاعد معروض للبيع إذ أن « البازار » لا يختص فى بضاعة معينة وهو مع ذلك أكتاف تتزاحم تروح وتغدو فى هذه السوق المتشعبة المظلمة ، وأسرعنا فى الخروج من البازار إلى نور الشمس وفى يوم آخر ذهبنا إلى « شميران » مصيف أهالى طهران .. ولا يخلو هذا المصيف من جمال الموقع وطيب الهواء غير أنه يحتاج إلى شئ كثير من النظافة ووسائل الراحة .. أما أثرياء القوم ووجهاهم فصيغهم فى « سربند » فوق شميران حيث المياه الجارية والثلوج التى تعلو قم الجبال وحيث تتوفر النظافة التامة والحدائق الجميلة .

لقد كانت رحلتى هذه على قصر أمدها رحلة ممتعة فجال الطابق بين الأهواز وطهران أبدع الله عز وجل صنعه فبدت فيه مناظر تسر لها العيون وتهفو إليها القلوب ؟

الكويت

محمد الفوزان